obeikandl.com

المكتبة الأكاديمية
الحاصلة على شهادة الجودة
ISO 9002
Certificate No.: 82210
03/05/2001
UKAS
QUALITY
MANAGEMENT

العقيدة

في حديث القرآن الكريم

obeikandl.com

العقيدة

في حديث القرآن الكريم

فضيلة الشيخ

محمد الراوي

الناشر

المكتبة الاكاديمية

شركة مساهمة مصرية

2008

obeikandl.com

حقوق النشر

الطبعة الأولى ٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ

حقوق الطبع والنشر © جميع الحقوق محفوظة للناشر :

المكتبة الاكاديمية

شركة مساهمة مصرية

رأس المال المصدر والمدفوع ١٨,٢٨٥,٠٠٠ جنيه مصري

١٢١ شارع التحرير - الدقى - الجيزة

القاهرة - جمهورية مصر العربية

تليفون: ٣٧٤٨٥٢٨٢-٣٣٣٦٨٢٨٨(٢٠٢)

فاكس: ٣٧٤٩١٨٩٠(٢٠٢)

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من الناشر .

obeikandl.com

بِسْمِ اللهِ، والحَمْدُ للهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى رَسُولِ اللهِ.

وبعد، فلقد تضمَّن القرآنُ الكريم أصولَ العقيدة، ودعا المؤمنين إلى الإيمانِ بها، والعملِ بمقتضاها، وحذَّر من الكُفران والجُحود بعد بيانٍ وإعذارٍ وإنذارٍ.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ (١)

ومن استحضرَ كيف نزل القرآنُ الكريم، وكيف حُفِظَ، عَرَفَ للقرآنِ قَدْرَه، وأخلصَ للهِ قَصْدَهُ، وأحسن عملَه.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (٢)

---

(١) النساء: ١٣٦.

(٢) الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤.

فمَنْ نَزَّل القرآنَ ؟ هو اللهُ ربُّ العالمين.

ومَن نَزَلَ به ؟ هو الرُّوحُ الأمين، جبريلُ عليه السلام.

ومَن نَزَلَ على قَلبِه ؟ هو النبيُّ الأميُّ محمدٌ ﷺ.

وكفى أن يكونَ القرآن تنـــزيلَ ربِّ العالمين ليكون بلاغاً ونذيراً للعالمين.

وأن يكون النازِلُ به الرُّوحُ الأمين، الذي كان وَلِيًّا لجميع المرسلين.

وأن يكونَ المتلقّي له رسولاً من ربِّ العالمين إلى الناس أجمعين؛ ليُعْلَمَ أنَّ الدِّينَ عندَ الله واحدٌ، وأنَّ مَن نَزَلَ به هو أمينُ الله، الذي أمره ربُّه أن يتنـــزَّلَ بوحيٍ منه إلى جميعِ المرسلين.

وما يتنـــزَّلُ إلاَّ بأمره ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ (١)

إن هذه الصلة بين مَن نَزَّلَ القرآن، ومَنْ نَزَل به، ومَنْ نَزَلَ

(١) مريم: ٦٤.

عليه - والتي تُوحي بها كُلُّ آيةٍ من آيات القرآن - تُبَصِّرُ المؤمنَ بعقيدته، وإيمانه بالله، وملائكته، ورُسُله.

وإنَّ الإعجازَ الذي يُعرَفُ به كيف حُفِظَ القرآنُ، وكيف تلقَّاه الرسولُ ﷺ - ولم يكن يدري ما الكتابُ ولا الإيمان، وما كان يتلو من قبله من كتاب، ولا يَخُطُّه بيمينه - هذا الإعجازُ يَبْطُلُ به كُلُّ شكٍ وارتيابٍ في أنَّ القرآن تنـــزيل ربِّ العالمين.

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (١)

ومنذُ نزل الرُّوح الأمين بالقرآن الكريم على قلب الرسول ﷺ والقرآنُ يُرَى أثرُه في خُلُقِ رسول الله ﷺ، وفيمَن استجابوا له، وعملوا به.

وقد عرفوا به حكمةَ خَلقهم، وغايةَ وجودهم. فكانوا له مُتَّبعين، وبهُداه - في كُلِّ شأنٍ من شئونهم - مُهتدين، مُوقنين أنه تنـــزيلُ ربِّ العالمين.

---

(١) العنكبوت: ٤٨.

وزادَهُم إيماناً ما يَرونه في كُلِّ آيةٍ تُتلَى عليهم، آمِرَةً كانت أو ناهِيةً.

وجبريلُ عليه السلام يتنـــزَّلُ بالقرآن في أيَّةِ لحظةٍ من ليلٍ أو نهار، أو سَفر أو حضر.

والرسولُ ﷺ بينهم يتلو عليهم من القرآن ما أُلقِيَ عليه، طالت الآياتُ أو قَصُرت.

فأيُّ إعجازٍ أبْيَن من ذلك وهم يرَوْنَ الرسولَ ﷺ قد جَمَعَ القرآنَ في صدره بتلاوة جبريل عليه، وجَمْعِ الله له ؟!.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: « إِنِّي قَاعِدٌ إِلَى جَنْبِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا، إِذْ أُوحِيَ إِلَيْهِ. قَالَ: وَغَشِيَتْهُ السَّكِينَةُ، وَوَقَعَ فَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي حِينَ غَشِيَتْهُ السَّكِينَةُ. قَالَ زَيْدٌ: فَلا وَاللَّهِ مَا وَجَدْتُ شَيْئًا قَطُّ أَثْقَلَ مِنْ فَخِذِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَقَالَ: اكْتُبْ يَا زَيْدُ » (١)

هكذا كان رسولُ الله ﷺ يتلقَّى الوحي، وكانت تلك شِدَّتُه.

---

(١) أحمد: مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث زيد بن ثابت عن رســول الله ﷺ رقم ٢٠٦٧٧.

قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنها وهي تَصفُ حالَ الرسول ﷺ حينَ ينــزِلُ عليه الوحي: « وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ (١) وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ (٢) عَرَقًا » (٣)

مَن الذي أقرَأه وجَمعَ له القرآنَ في صدره ؟

وقد كان ﷺ يبادِرُ جبريلَ عليه السلام فيقرأُ قبل أن يفرغَ من الوحي؛ حرصاً على الوحي، وشَفَقةً على القرآن مخافَةَ النسيانِ ! فنهاه الله عن ذلك، وأنزل قولَه: ﴿ **وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا** ﴿١١٤﴾ ﴾ (٤)

إنَّ الله تعالى قد تكفَّلَ لنبيِّه ﷺ أن يجمع له القرآنَ في صدره، وأن يُيسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يُبيِّنه له ويُفسِّرَه ويُوضِّحَه، وقد كان ﷺ يبادِرُ إلى أخذه، ويُسابِقَ المَلَكَ في قراءته،

(١) أيْ: يُقْلِع ويَنجلَّى.
(٢) مأخوذ مِنْ الْفَصْدِ وَهُوَ قَطْع الْعِرْق لِإِسَالَةِ الدَّم. شُبِّهَ جبينه بِالْعِرْقِ الْمَفْصُود مُبَالَغَة فِي كَثْرَة الْعرَق.
(٣) البخاري: كتاب بدء الوحي، رقم ٢.
(٤) طه: من الآية ١١٤.

فأمره الله ﷻ إذا جاءه المَلَكُ بالوحي أن يستمعَ له.

وذاك ما كان منه ﷺ. فكان إذا أتاه جبريلُ عليه السلام أطرَقَ، فإذا ذهبَ جبريلُ قَرَأَهُ كما وعده الله ﷻ، حيث قال:

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ (١)

إنَّهُ القرآنُ، وإنها العقيدةُ تُرَى أصولُها ودَلالتُها في كُلِّ آيةٍ من آيات القرآن الكريم، وأنت تستحضرُ الصِّلَةَ بين مَن نَزَّلَ القرآنَ، ومَن نَزَلَ به، ومَن نَزَلَ عليه.

الإيمانُ بالله وملائكته ورُسُله، وما جاءوا به من عند الله، عقيدةٌ راسخةٌ في قلوب المؤمنين، تُستَحْضَرُ وهم يقرأون القرآن، أو يستمعون إليه، ويَرَوْنَ أنَّ كُلَّ آيةٍ تُتلىَ عليهم قد مرَّتْ بقلبِ رسولِ الله ﷺ وهو يتلقَّى القرآنَ من لَدُن حكيمٍ خبير.

وجبريلُ عليه السلام يُقْرِئه فيتَّبِع قراءَته في كُلِّ كلمةٍ من كلمات القرآن، فلا يغيبُ عنهم حضورُ جبريل ووجوده، كما لا يغيبُ عنهم

(١) القيامة: ١٦ – ١٩.

حضورُ الرسول ﷺ في كُلِّ آيةٍ من آيات القرآن، وقد مَرَّت بقلبه قبل انتقالِها إليهم.

إنَّ هذا الاستحضار لازِمٌ لمن أراد أن يتدبَّرَ القرآن، وأن يعملَ به؛ حتى يكونَ مُتَّبِعاً في جميع أمْرِه، غيرَ مبتدعٍ في عملٍ أو اعتقاد، وهو يعرف للقرآنِ شأنَه، ويعرِفُ للرسولِ ﷺ قَــدْره، فيراهُ شَرَفاً له يستمسِكُ به، ولا يَحيدُ عنه.

عملاً بقول ربِّه: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤ ﴾[1]

ومَن صَاحَبَ القرآنَ وعَمِلَ به وجَدَهُ – في كُلِّ شأنٍ – تبصرةً وتذكرةً وهدايةً للتي هي أقوم. وكان له حياةً ونُوراً يُسَدَّدُ به إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيم.

ومنهجُ القرآن في تذكرةِ الإنسان وتبصرته فِطْرِيٌّ، لا عُسْرَ فيه ولا تكلُّف، ذلك أنَّ القرآنَ يُخاطِبُ الإنسانَ – وهو يقرأ القرآنَ – بآياتِ الله في نفسه، وفى الكون من حوله، وهي قائمةٌ بالإنسان حيث كان، في

(١) الزخرف: ٤٣، ٤٤.

سُكونِ ليلٍ،أو تنفُّسِ صُبْحٍ. في حَضَرٍ أو سفرٍ، في يُسْرٍ أو عُسْرٍ، وشِدَّةٍ أو رخاءٍ.. في جميعِ الأحوالِ ترى ما يخاطِبُكَ به القرآن.

والقرآن - وهو يهديك إلى ربِّك - يأخُذك في رحلةٍ يُرِيكَ فيها من صُنْعِ ربِّك، ويُبصِّرُكَ بآياته؛ حتى تؤوبَ إليه دائماً وتُنيب، وتعبده وأنت تخشاه وترجوه.

فحديثُ القرآن عن الكون وعن كُلِّ شيءٍ يُتَعَبَّدُ به لفظاً، كما يُتَعَبَّدُ - في واقعٍ - معنىً، فأنت تتلوه في محرابِ الصلاة خاشعاً، وتراه في واقعِ الحياة بيِّناً ساطعاً.

تقرأُ في الصلاة قولَه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣﴾ (١)

وتخرُجُ من محرابِ الصلاة إلى ساحةِ الحياة وأنت تفكِّرُ في نفسِك، وفى السماء، وفى الليل والنهار، وفى الأرضِ ومائها

(١) النازعات: ٢٧- ٣٣.

ومَرْعَاها، وفى الجبالِ ومَنْ أرسَاها...

تَرَى هذه الأمورَ ماثلةً أمامَ عينك، تُعْلِنُ عن صِدْقِ الوحي في صَمْت، وتَدِينُ للخالقِ العظيم في خشوعٍ، فيتَّسِعُ محرابُ العبادة، ويتحوَّلُ الكونُ كُلُّه إلى محرابٍ خاشعٍ، فيه تسبيحٌ وتحميدٌ وتنـــزِيهٌ.

فإذا ما فكَّرتَ في أمْرِ السماء، جاءك القرآنُ بالقول الفَصْل.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (١)

وإذا فكَّرتَ في شأن الأرض وما قام فيها، جاءك القرآنُ باليقين أنَّها من صُنع الله ربِّ العالمين.

﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٢)

ثم يأتيك نَبْؤُهما بالحقِّ في آيات بيِّنات، لا تجعل انتفاعَك بالكون انتفاعاً آليًّا وإفادَتك بما تجودُ به السماءُ وما تُخرجه الأرضُ إفادةَ حيوانٍ يتناول ما يأتيه، ولا يُفكِّرُ من أينَ ؟ وكيف ؟ ولِمَ يأتيه ؟

ومن رحمةِ اللهِ بالإنسانِ أنْ جعله يقرأ كتابَه المنـــزَّل في صفحةِ

(١) الذاريات: ٤٧.
(٢) الذاريات: ٤٨.

الكون منقُوشاً ومنثوراً، وصفحةِ الوحي مقروءاً ومَسطوراً ومحفوظاً.

وعناية القرآن بالكون هي عنايته بالإنسان نفسه؛ إذ هو المقصود، وهو المخاطَب بآيات الله في الكون الذي أقلَّته أرضُه، وأظلَّته سماؤه، وغذَّاه نباتُه، ورواه ماؤه، وأمدَّته شمسُه وهواؤه، وآواه ليلُه، وعايشه نهارُه. وقد استقبله في حياته، وضمَّهُ في مماته.

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

ومَن تدبَّرَ هذا عَرَفَ لماذا حضَّ القرآنُ الكريم على التفكُّر في خَلْقِ السماوات والأرض، وسَار بالإنسان في أوديَةِ الكون المختلفة، وحقائقه المتباعدة.

ويأتيه البيانُ حين يتدبَّرُ القرآنَ؛ ليعرِفَ من أين ؟ وكيف ؟ ولِمَ ؟

يأتيه البيانُ وهو يقرأُ قولَ ربِّه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ

(١) المرسلات: ٢٥، ٢٦.

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (١)

هكذا يُرينَا القرآنُ بنوره آياتِ الله في أنفسِنا وفي الآفاقِ من حولنا، فيُعيننا بهدايته على القيام بحكمةِ خَلْقنا، وغايةِ وجودنا.

يُعينُنا على عبادة الله وحده، وعدمِ الإشراك به، وهو يشيرُ إشارةَ بُعْدٍ وتعظيمٍ لِمَا قادَنا إليه من آياتٍ، ومَا أَرَانَا من بيِّناتٍ.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٢)

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ

---

(١) غافر: ٦١- ٦٥.

(٢) غافر: ٦٢.

﴿ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (١)

مَشْهَدٌ كوني واسعٌ، تَطيبُ به النفسُ، ويخشعُ القلبُ.

والقرآنُ الكريمُ مع بيانه لحكمةِ خَلْقِ الإنسان وغايةِ وجوده

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ (٢)

قد حدَّد حقيقةَ العبادة، وهَدَى إليها، وبصَّر بها، وأرسَلَ من أجلِها رسولاً يُقتَدَى به، ويُهتَدَى بِهُداه ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (٣)

وأَمَرَ سبحانه أنْ يُطَاعَ هذا الرسولَ ولا يُعْصَى.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (٤)

---

(١) الأنعام: ١٠٢.
(٢) الذاريات: ٥٦، ٥٧.
(٣) الأحزاب: ٢١.
(٤) النساء: من الآية ٦٤.

وقد حُفظَ القرآنُ الكريم، وحُفظَ بيانُه؛ ليبقى القرآنُ، وتبقى السُّنَةُ منهاجاً للناسِ يعرفونَ به كيفَ يعبدون ربَّهم، ويُخلصون القصد له، ولا يضلُّون السبيل ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ (١)، ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (٢)

ومَن تدبَّر عَرَفَ متى يقعُ الإضلالُ والفساد.

ومتى يكونُ الشَّقاءُ، ويُرْفَعُ التراحم.

في ختام الآيتين بيانٌ - أيُّ بيانٍ - لِطَلَبِ التراحم والهدايةِ.

إنهما في اتِّباعِ ما حُفِظَ بِحِفْظِ الله من كتابٍ وسُنَّةٍ.

﴿ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾

---

(١) الأنعام: ١٥٥.

(٢) الأعراف: ١٥٨.

﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

فمَن ابتغى الهدايةَ والرحمةَ فذلك هو السبيل، ومَن يرغَبُ عن الرحمةِ والهداية فذلك هو المصير ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ (١)

عَرَفَ المُسلمونَ ذلك، وأيقَنوا به، كما أيقَنوا أنَّ الذِّكْرَ الحكيمَ - الذي حُفِظَ بحفظِ الله - سيكون عند الله حُجَّةً لهم أو عليهم.

حُجَّةً لهم إنْ هُمْ عَملوا به، واهتدوا بهُداه.

وحُجَّةً عليهم إنْ هُم هجروه، وأعرضوا عنه، وارتضوا سواه.

وقد استحضروا ذلك في جميع أعمالهم، فرأيناهم لا يُخالفون له أمراً، ولا يستبيحون له نهياً.. فنصرهم اللهُ حين نصروه، وتعَوَّقَ نَصْرُهم حين قصَّروا في نَصْرِه، ورأوا أنفسَهم بدونه.

وعرفوا أن مَن طَلَبَ النصرَ لن يتحقَّقَ له إلاَّ بنَصْرِ الله في نفسه.

عرَفوا ذلك من كتابِ ربِّهم، وسُنَّةِ نبيِّهم. فإنْ تعوَّقَ نصرُهم،

(١) النساء: ١٤.

اقتحموا أنفسَهم، و لم يرتابوا في وَعْدِ ربِّهم.

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝ ﴾ (١)

كَتَبَ عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لسعدِ بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين أرسَلَه إلى فتحِ فارس: " أما بعدُ، فإني آمُرُكَ - ومَن معكَ من الأجناد - بتقوى الله على كُلِّ حالٍ؛ فإنَّ تقوى الله أفضلُ العُدَّةِ على العدو , وأقوى المكيد على الحرب.

وآمُرك - ومَن معك من الأجناد - أن تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوِّكم؛ فإنَّ ذنوبَ الجُندِ أخوفُ عليهم من عدوِّهم.

وإنما يُنْصَرُ المسلون بمعصيةِ عدوِّهم لله.

ولولاَ ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأنَّ عَدَدَنا ليس كعددِهم، ولا عُدَّتنا كعُدَّتهم. فإن استوينا في المعصيةِ كان لهم الفضلُ علينا في القوة.

وإلاَّ ننتصرُ بفضلنا لم نغلبْهم بقوَّتنا.

فاعلموا أنَّ عليكم في سَيْرِكم حفظةٌ من الله يعلمون ما

---

(١) محمد: ٦.

تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيلِ الله.

ولا تقولوا: إنَّ عدوَّنا شَرٌّ منَّا، فلنْ يُسَلَّطَ علينا ! فرُبَّ قومٍ سُلِّطَ عليهم شَرٌّ منهم، كما سُلِّطَ على بني إسرائيل - لَمَّا عملوا بمعاصي الله - كُفَّارُ المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً.

واسألوا الله العونَ على أنفسكم كما تسألونه النصرَ على عدوِّكم. أسألُ اللهَ تعالى ذلكَ لنا ولكم ".

تلك مكانةُ القرآن الكريم في حياة المسلمين.

عرفوا مكانته عملاً واتباعاً.

وأيقنوا أنهم به، ولم ولَنْ يكونوا بسواه.

فكان احتراسُهم من المعصية أشدَّ من احتراسهم من العدو.

عَرَفوا ذلك، وأيقنوا به واقِعاً، وفيهم رسولُ الله ﷺ حين أجابهم القرآن عن سببِ ما وقع بهم في غزوةِ أُحُد.

﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (١)

(١) آل عمران: من الآية ١٦٥.

فَلَزِمُوا الطاعةَ لله وللرسول في كُلِّ شأنٍ صَغُرَ أو كَبُرَ، وطلبوا نصرَ الله بصدقٍ وإخلاصٍ وحُسن اتباع.

وكان للقرآن الكريم منـــزلتُه فيهم، وكان له تأثيرُه البالغ في نفوسهم، حتى رأينا أقوالَهم وأعمالَهم نابعةً من صِدْقِ إيمانهم ويقينهم بآيات ربِّهم.

ومَن تدبَّرَ كتابَ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم يجدْ كلمةً واحدةً إلاَّ ولها أصلٌ من كتابٍ وسُنَّة، ولم يجد واحداً بعيداً عن صِدق طاعةٍ لله وحُسن اتباع لرسوله.

بل لقد بلغ من تأثير القرآنِ فيهم، ويقينهم بأنه سيلازمهم في حياتهم وبعد موتهم، أن رأيناهم يستحضرون موقفَهم بين يدي الله والقرآنُ يطالبهم بفريضته ويسألهم عن طاعته.

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فيما رواه عن ابنُ حوشب: « أخافُ أن يُقالَ لي يومَ القيامة: أعلمتَ أم جهلتَ ؟ فأقول: علمتُ، فلا تبقى آيةٌ في كتاب الله – آمرةٌ أو زاجرةٌ – إلاَّ وتسألني الآمرةُ: هل ائْتَمَرْتَ ؟ وتسألني الزاجرةُ: هل ازْدَجَرْتَ ؟ فأعوذُ بالله من علمٍ لا ينفعُ، ومن دعاءٍ لا يُسمَع »

وهذا الكلام من أبي الدرداء، والعمل الذي يُصَدِّقه، دليلُ يقينهم بما جاء في كتاب ربِّهم، وإيمانهم بلقاء الله والحسابِ بين يديه.

فإنَّ الإيمان بالآخرة لا يُبارِحُ نفوسَهم، ولا يُشغَلون عن الاستعداد للآخرة، أو يُؤخَذون بزينةٍ أو متاع.

ولا شكَّ أن الإيمانَ باليوم الآخر أصلٌ من أصول الإيمان. ومَن غاب عنه ذلك ضَلَّ السبيلَ، وأساءَ ولم يُحْسِن.

والقرآن الكريم كثيراً ما يُبيِّنُ النتائجَ التي تترتب على اليقين به أو جحوده، في سلوك الإنسان أو روابط المجتمع.

فاليقين باليوم الآخر داعٍ إلى الخشية والمسابقة إلى الخيرات.

والجحود به خُسرانٌ وتخبُّطٌ في الظلمات.

واستمع إلى النتائج في الحالين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (١)

تلك نتيجة الإيمان واليقين.

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (٢)

وتلك هي نتيجةُ الغفلة عن اليوم الآخر ونسيانه.

إنهم ناكبون عن كُلِّ صراطٍ مُوصِّلٍ للغاية. والنَّاكِبُ: العادلُ عن شيءٍ، المُعْرِضُ عنه.

ذاكَ ما يترتَّبُ على جُحود الآخرة.

وهناك عقابٌ عاجلٌ لِمَن أصرَّ على الكُفران والجُحود.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (٣)

---

(١) المؤمنون: ٥٧- ٦١.

(٢) المؤمنون: ٧٤.

(٣) النمل: ٤.

ذاكَ عقابُهم في العاجلة قبل الآخرة ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ فيُسيئون وهم يَحسبون أنهم يُحسنون ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ (١)

وما أشدَّه عقابٌ. أنْ يُصابَ الإنسانُ بالعمى - وهو عَمى البصيرة - فلا يُميِّزُ بين الأشياء، بل يمضي في الحياة بلا اهتداء !

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (٢)

والقرآن الكريم كما بيَّن حكمةَ الخَلق، ودعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قد حذَّر من الوقوع فيما يُناقض ذلك أو يخالفه بِشِرْكٍ أو ابتداعٍ، وخاطَبَ نبيَّه ﷺ بذلك؛ لِيُوعَظَ غيره.

---

(١) الكهف: ١٠٣، ١٠٤.

(٢) فاطر: ٨.

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (١)

إنَّ إخلاص الدِّين لله وعدم الإشراك به، لم يكن وَقْفاً على عملٍ دون عمل، بل كان أصلاً في كُلِّ نِيَّةٍ وقولٍ وعملٍ، وهم يعلمون أنَّ الشرك مُدَمِّرٌ لأهله، مُحْبِطٌ مُبْطِل.

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (٢)

عَرَفوا ذلك من كتاب ربِّهم وسُنَّةِ نبيِّهم، فاحترسوا من الشركِ، وابتعدوا عن الرِّياء، وتصدَّقوا ولم يُبطِلوا صدقاتِهم بِمَنٍّ أو أذى.

فكان القرآنُ - وهم يرونه خُلقاً لرسول الله ﷺ - دستورَهم في كُلِّ أمرٍ ورائدَهم في كُلِ شأنٍ، لا يُخالفون له أمراً، ولا يرتكبون

(١) الزمر: ٦٥، ٦٦.
(٢) الحج: من الآية ٣١.

نَهياً. وهم يَرَوْنَ عِزَّتَهم في طاعته، وشرَفهم في حُسن اتباعه.

لا يغيبُ عنهم - في أيِّ أمرٍ صَغُرَ أو كَبُرَ - أن يعرضوا ما يرونه لأنفسهم على كتاب ربِّهم وسُنَّةَ نبيِّهم، وأن يَرُدُّوا ما يتنازعون فيه أو يختلفون إلى الله والرسول ﷺ؛ عملاً بقول ربِّهم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (١)

فغَدَا إيمانُهم واستقامتُهم - كما أمرهم ربُّهم - فطرةً لا تكلُّفَ فيها ولا عُسْرَ معها.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٢)

فتحقَّقَ لهم بالقرآن الكريم خصائصُ وصفات واجهوا بها - في

(١) النساء: ٥٩.
(٢) الأعراف: ٤٢.

حياتهم - جميعَ التحديات، وشقُّوا طريقَهم منتصرين ظافرين بفَضْلِ ربِّهم، وكانت هذه الخصائص - دائماً - هي العاملةُ في استنهاض الهِمَم؛ للأخذ بالأسباب في كُلِّ عَصْرٍ وزَمَن.

لقد كان القرآنُ الكريم - وما زال - مبعثَ حياةٍ لهذه الأمة.

به اعتصمت فتوحَّدَت، وتمسَّكت فاهتَدَت.

وعاشَت تاريخَها بين مَدٍّ وجَزْرٍ.

يعلو شأنُها حين تعتصمُ به ولا تتفرَّق.

ويُصيبها من الهوانِ ما يُصيبها حين تُشغَلُ عنه، أو تَعْتَزُّ بغيرِ ما أعزَّها اللهُ به.

بهذا الكتاب تُعْرَفُ قِيَمُ الناس، وتُوزَنُ أعمالُهم.

وبه يَرْفَعُ الله أقواماً، ويَضَعُ آخرين.

وهو ثابتٌ لا يتغَيَّرُ، محفوظٌ بحِفْظِ الله لا يتبدَّل.

وأُمَّتُنا بخيرٍ - دائماً - إنْ هي أحسنَتْ كيف تحيا به.

إنه يَحْفَظُ شخصيتَها، ويُبقِي عليها مُمتدَّةً مع الزمن كُلِّه،

ويجعلها تصمُدُ أمام المخاطرِ والمغْريات.

والقرآنُ الكريم قد علَّم المؤمنين به أن يأخذوا بالأسباب في شتَّى المجالات؛ فإن التفريطَ في الأخذ بالأسباب معصيةٌ، كما أنَّ الرُّكُونَ إلى الأسباب - دونَ توكُّلٍ على الله - مَفْسَدةٌ ومضيعة.

استَنْهَضَ القرآنُ هِمَّتَهم، وجَمَّع شَمْلَهم، فقاموا بالأخذ بالأسباب؛ طاعةً لربِّهم لنُصْرَةِ الحقِّ، وإقامةِ العدل، دون تفرقةٍ بين عَدُوٍّ وصديقٍ، وقريبٍ وبعيدٍ؛ عملاً بقول ربِّهم:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ (١)

هكذا أُمِرُوا، وهكذا فعلوا. فنَصَرُوا المظلومَ ولو كان من غيرهم، وأخذوا على يدِ الظالم ولو كان منهم؛ طاعةً لله واستجابةً لرسوله ﷺ،

(١) النساء: ١٣٥.

حيث قال: « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنْ الظُّلْمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ » (١)

نصروا الحقَّ في أنفسهم أوَّلاً بتغليبِ أمره على هواهم، ولم يستطع كَيْدُ عدوٍّ أنْ يصرفهم عن الحق، أو يستخفَّهم عن التمسك به والإصرار عليه.

وهم يعرفون عاقبةَ الثبات على الحق، ويُوقنون أن لكُلِّ أمرٍ عاقبته، وأن لكُلِّ عملٍ جزاءه، وأن الموتَ في نُصرةِ الحقِّ حياةٌ، وأن الحياةَ في مَعيَّة الباطل موتٌ، فصبروا وصابروا، وثبتوا مع الحق وإنْ قَلَّ عددُهم، وهم موقنون بحُسْنِ العاقبة وإن طال الزمن.

فإنَّ مَن تدبَّرَ العواقبَ أيقنَ أنَّ الحقَّ لا يُهزَمُ أبداً، وأنَّ المنكرين له، الصَّادين عنه، مأخوذون به؛ فإنَّ للحقِّ نوراً وناراً، فمَن أَبَى النورَ فالنارُ موعدُه.

والمؤمنُ وهو يحيا مع كتابِ ربِّه - الذي يُثيرُ في نفسه دوافعَ

(١) البخاري: كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه، رقم ٦٤٣٨.

العِزَّة، ويُعرِّفه مكان أُمَّته، وما يجب أن تكون عليه - لا تنطفئ شعلةُ أمله، بل يأخذُ بالأسباب وهو يعرفُ سُنن ربِّه، وأنها سُنَنٌ لا تُجامِل ولا تُحابي، ولا تتبدَّل ولا تتغيَّر، فيأخذ نفسه بأسباب العِزَّةِ والنَّصْرِ، ويتجنب أسباب الهوان والذُّل.

والقرآنُ الكريم يَقُصُّ عليهم أحوالَ الأُمم الماضية؛ ليُريهم من خلالها سُنَنَ الله الباقية ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ (١)

هكذا يُعَرِّفهم القرآنُ - في وقائع - نتائجَ الأعمال، ويُبَصِّرهم بعواقبِ الأمور، فلا يعملون بما تسوءُ عاقبته ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ

(١) آل عمران: ١٣٧ - ١٣٩.

لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾ (١)

والقرآنُ الكريم - وهو يهدي في كُلِّ شأنٍ للتي هي أقوم - لا تنفصل فيه الشريعة عن العقيدة، ولا تنهضُ الشريعةُ ويَحْسُن العمل إلاَّ بصِدْقِ العقيدة واستحضارها.

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ (٢)

من هُنا لا نرى آيةً في القرآن الكريم خَلَت من العقيدة في ثنايا كلماتها، أو خواتيم آياتها.

ففي آيات المواريث - مثلاً - وهي تُبَيِّنُ ما يتعلَّق بتركة الميت من

(١) الطلاق: ٨ - ١١.
(٢) التغابن: من الآية ١١.

فروضٍ، وما يكون للورثةِ من حقوق ونرى في خواتيم الآيات الثلاث:

﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾ (١)

﴿ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (٢)

وبعد هاتين الآيتين نقرأ قولَه تعالى مُشيراً إلى ما حدَّدَ من حقوقٍ، وبَيَّنَ من فرائض: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ (٣)

وفي ختام الآيةِ الثالثة من آيات المواريث، وهي ختام سورة النساء، يأتي قولُه تعالى: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾ (٤)

---

(١) النساء: من الآية ١١.
(٢) النساء: من الآية ١٢.
(٣) النساء: ١٣، ١٤.
(٤) النساء: من الآية ١٧٦.

مَا دَلالةُ ذلك ؟

دلالتُه أنَّ ما شرع الله من أحكامٍ، وما أمر به أو نَهى عنه في أيِّ شأنٍ يكون العمل به مواتاً إذا لم تُصاحبه خشيةٌ وتُقىً وإيمانٌ؛ فالعقيدة هي الروح، ولا حياةَ بدونها لإنسان.

من هُنا كان القرآنُ هو المصدرُ المحفوظُ من الله؛ ليكون دَوْمَاً مصدرَ هدايةٍ وتبصرةٍ لتقويم حياة الناس بمعرفة الله وخشيته أوَّلاً.

وعليه تكون الشريعةُ، ويكون التنظيمُ موضعَ تقديرٍ وحُسن استجابة من الناس؛ إذ لا تُمليه الأهواءُ، وإنما يُمليه صِدْقُ التدبر والاستجابةُ لله ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (١)

وهكذا تمتزجُ الشريعةُ والعقيدةُ في القرآن، فيُرَى في الشريعة نورُ العقيدة، ويُرَى أثرُ العقيدة في العملِ بالشريعة، عَدلاً وصِدْقاً، وأمانةً وحقّاً.

---

(١) القصص: ٥٠.

وما أجملَ وأكملَ أن نرى العقيدةَ حاضرةً في أدقِّ شئونِ الإنسان وما يبتغيه، فتقرأ في قوله تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾ (١)

نقرأ في ختام هذه الآية قولَه تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾

إنَّ هذا الاستحضار لأمرِ العقيدة في جُزئياتِ العمل في الحياة هو السبيلُ لتحقيق رقابةٍ ذاتيةٍ تقوم في نفسِ الإنسان ولا تغيب.

وشَتَّانَ بين حالين:

بين حالٍ يستحضر منه المؤمنُ رقابةَ ربِّه، فَيَكُفّ عن الشرِّ، رآه الناسُ أو غابوا عنه.

---

(١) البقرة: ٢٣٥.

وبين حالٍ يكون فيه الكَفُّ عن الشرِّ مُجرداً من اليقين برقابةٍ لا تغيب.

هنا - مع اليقين والإيمان - ترى أمامك إنسان سلمٍ وأَمْنٍ، بلا تكاليف.

وفي غيبة الإيمان يغيبُ إنسانُ السِّلم والأَمْنِ، فلا يقوم في الناس سِلْمٌ ولا أَمْنٌ مهما بلغت التكاليف؛ إذ لا سِلْمَ بلا إيمانٍ لا يشوبه ظلام شرك أو فسادُ إفك، ولا أَمْنَ بلا إنسانٍ لا يلبس إيمانه بظلم.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ ﴾ (١)

وفي حديث القرآن عن القرآن تَرَى العقيدةَ حاضرةً نَيِّرَةً بنُور الأسماء والصفات، صفاتِ مَن نزَّل الذِّكْرَ وحَفِظَه؛ لتُعْرَفَ للقرآن منـــزلتُه وعِزَّتُه ورحمتُه، وأنه ليس مجرداً عن قوَّةٍ تُحقق وعده ووعيده. فمَن نزَّله هذه صفاتُه، وتلك أسماؤه.

فتقرأ في سورة الحشر قولَه تعالى:

---

(١) الأنعام: ٨٢.

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

وتقرأ بعد هذه الآية مباشرةً: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٢)

فترى اسْمَ الله وصفاته تتكرَّر مع الحديث عن القرآن، فتعرف دلالةَ هذه الصفات وأثرَها في نفسك وفي الآفاق من حولك، وتعرف صِدْق ما أخبر به القرآنُ عن تأثيره والتأثُّرِ به. إذ لو كان المخاطَبُ

(١) الحشر: ٢١.
(٢) الحشر: ٢٢ - ٢٤.

جبلاً، وكأن الجَبَلُ يفهم الخطابَ لتأثّرَ بخطابِ القرآن تأثُّراً ناشئاً من خشية الله ﴿ لَرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

ما ذاك إلاّ لأنَّ القرآنَ كلامُ الله، وتلك أسماؤه وصفاتُه.

وقد تكرَّر في سورة (الحشر) وحدَها ذِكْرُ اسم الله وضمائره وصفاته أربعين مرَّةً، منها أربعٌ وعشرون يذكر اسمَ الجلالة (الله) وست عشرة مَرَّةً يذكر ضميره الظاهر أو صفاتَه.

ومَن تدبَّرَ ذلك عَرَفَ مكانَة القرآن، وأنه الكتاب الذي تُرى فيه رسالة الرُّسُل جميعاً كما جاءت من عند الله.

وعَرَفَ أنهم ما بُعِثوا جميعاً إلاّ بدينٍ واحد (هو الإسلام).

وذاك كتابُه الذي يُعْرَفُ منه ما جاء به إبراهيمُ وموسى وعيسى - عليهم السلام - وما أُمِرُوا به، وما دعوا إليه.

وبذلك يكون حفْظُه حفْظاً وبياناً لما أُرْسِلوا به، وشهادةً يشهد بها المسلمون على الأُمم جميعاً بأنَّ رُسُلهم قد بلَّغوا ما أُمِرُوا به.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١)

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (٢)

وبعـــد، فإنَّ القرآن الكريم قد أُنْزِلَ وحُفِظَ من أجل الإنسان.

وحديث القرآن عنه وإليه حديثٌ أخَّاذٌ، تخشَعُ له القلوبُ، وتطيبُ النفوس.

والإنسان - وهو يُخَاطَبُ بالقرآن - يرى دلالتَه في نفسه وفي الآفاق من حوله، وعندئذ يكون بيان الحق والعمل به فِطْرِياً لا عُسْرَ فيه ولا تكلُّفَ معه ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (٣)

---

(١) البقرة: من الآية ١٤٣.

(٢) المائدة: من الآية ٤٨.

(٣) فصلت: من الآية ٥٣.

(مَشْهَدٌ تُرَى فيه الأرضُ والسماء)

ومن أجل الإنسان حيثُ كان تتَّسِق آيات القرآن مع آيات الله في الأنفس والآفاق في مخاطبته؛ ليظَلَّ موصولاً بالمعرفة، معصوماً بالهداية والخشية، يُبْصِرُ بالقرآن نفسَه، ويعرف حكمةَ خَلْقه، ويرجو رحمةَ ربِّه.

وقد حُفِظَ القرآنُ؛ لتظَلَّ الصِّلَةُ بين الخالق والمخلوق موصولةً بحبلٍ تعتصم به النفوس وتأتَلِف القلوب.

ويظَلُّ القرآن في الناس يُقَدِّمُ هدايته وتبصرته، ويُعرِّفهم ما لم يكونوا يعرفونه في ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ.

يُريهم شئونَ دُنياهم، ويأخذهم بنوره إلى عاقبتهم وأُخراهم.

يُحدِّثهم عن الجنة وما فيها، ويجعلهم يُبْصِرُونَ نعيمَها، ويُقرِّبهم منها؛ حتى يَشُمُّوا ريحَها.

ويُحذِّرهم عن النار، ويُريهم أصحابَها وهم في عذاب جهنم لا يُقضَى عليهم فيموتوا، ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابِها.

يُريهم المقدماتِ والنتائج لأُمَمٍ مَضَتْ وقرونٍ خَلَت.

والقرآنُ الكريمُ حافِلٌ بالزمن كُلِّه، ماضيه وما حوى،

ومستقبله بما احتوى، وحاضره بما يشتملُ عليه من مشاكلَ متعددةٍ، وقضايا متنوعةٍ، يقفُ منها موقفَ الحَكَم العدل الذي يُسوِّي بين الخَلْق، ويقضي بينهم بالحَقِّ، ويرفَعُ معالمَ الهُدى، ويُثيرُ دوافعَ الرحمة.

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (١)

من هُنا تُعْرَفُ مكانة القرآن في حياة المسلمين وتاريخهم، وأنه سِرَاجٌ وهَّاجٌ يُمسِكُ زمامَ النفوس، بما احتوى من قوَّةِ الجذب والتأثير، فهو في عُلُوِّه ساطعٌ بنوره، تنجذب النفوسُ حوله، وتدور في فَلَكِه، فيُمسك بها مضيئةً مُشرقَةً، آمنةً مطمئنةً، عادلةً مُعتدلةً، لا تحيد عن الحقِّ أو تميل، كما تُمسِكُ الشمس بِعَالَمِهَا، وتدور حولها كواكبُها، وهي تجود بالحياة، وتبعَثُ بالضياء، وتشرقُ بالنور. والذي جعل الشمسَ ضياءً هو الذي جعل الكتابَ نوراً.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ

(١) النحل: ٦٤.

عِبَادِنَا ﴾ (١)

ولذا فإنَّ شمسَ الإسلام - في حياة الأَنَامِ - لا تَغيب، إنْ بَارَحَتْ رءوسَ قومٍ أنارَتْ عند آخرين. ولن تستطيعَ قوَّةٌ - مهما بلغت - أن تَحْبِسَ ضوءَها، أو تُوقِف مدَّها.

إنها سابحةٌ في فَلَكها، مُسَبِّحَةٌ تُذَكِّرُ بربِّها، والذكرى تنفع المؤمنين ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٢) (مَشْهَدٌ من حركة الشمس في شروقٍ وغروبٍ)

***

(١) الشورى: من الآية ٥٢.

(٢) إبراهيم: ٣٣.

obeikandl.com

التبصرة بالآيات البينات

أولا: تبصرة الإنسان بنفسه:

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴿١﴾ ﴾ (٢)

نعم، جاء على الإنسانِ حِينٌ من الدَّهْرِ لم يكن شيئاً مَذْكوراً. وهذا التذكير بأنَّ كُلَّ إنسانٍ قد كُوِّنَ بعد أن لم يكن. بل هذا التقرير يقتضي أنْ يُوقِنَ الإنسانُ بإعادةِ تكوينه بعد عَدَمه.

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ (٣)

فلننظر كيف بدأ خَلْقَ الإنسان ؟ وذلك حديثُ القرآن:

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ

---

(١) الذاريات: ٢١.
(٢) الإنسان: ١.
(٣) الإسراء: من الآية ٥١.

obeikandi.com

فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (١) (مَشْهَدُ تنشئةِ الإنسانِ وتطوّره في رَحِمِ أُمِّه)

ثانيا: تبصرته بطعامه:

وذاك حديثُ القرآن ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾(٢)

وَلْنَرَ ضميرَ العظمةِ (نــا) في قوله: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ ﴾، ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ ﴾، ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾؛ لنعلمَ أنَّ العقيدة الفطرية –

---

(١) المؤمنون: ١٢– ١٧.

(٢) عبس: ٢٤ – ٣٢.

التي وُلِدَ الإنسانُ عليها - لا تكلُّفَ في فهمها، ولا عُسْرَ في العمل بمقتضاها ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (١)

أليسَ مَنْ خَلَقَ ورَزَقَ يستحقُّ أن يُعْبَدَ ؟ ولا يستحقُّ أنْ يُعْبَدَ أحدٌ سُواه ؟ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢)

(مَشْهَدٌ تُرَى فيه الأمطارُ والزُّروعُ والثمار)

ثالثا: تبصرته بما يُسخَّر من أجله:

وذاك حديثُ القرآن ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن

(١) الروم: من الآية ٣٠.
(٢) البقرة: ٢١، ٢٢.

جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [1] (مَشْهَدٌ من الكون فيه جمالٌ وجلالٌ، وتبصرةٌ وتذكرةٌ، وعِبرةٌ لِمَن يعتبر)

وهذا المشهدُ يكفي في مخاطبة الإنسان بأنَّ القرآنَ تنـــزيلٌ من الرحمن الرحيم؛ فمَن ذَا الذي يستطيعُ أن يَصِفَ هذا المشهد الذي يحمل في طيَّاته عجائبَ قُدرةٍ وحكمةٍ ؟ وأن يجعله - في عُلُوِّه - مجال تبصرة وعِبرةٍ ترتفع به النفس وتسمو، ولا تخلد إلى الأرض إن هي استمسكت بما يُوحِي به، وتذكَّرت به واهتدت ؟

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [2]

وكذلك هُنا تُرى العقيدةُ، عقيدةُ البعث - الذي هو أصلٌ من أصول الإيمان - تأتي دلالتُها في مشهدٍ فطريٍّ لا تكلُّفَ فيه، ولا

---

(١) النور: ٤٣.

(٢) الأعراف: ٥٧.

عُسْرَ في اليقين به.

كما نُخرج الثمرات من حبوب كانت مقبورةً في الأرض، كذلك نُخْرِجُ الموتى من قبورهم؛ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

رابعا: تبصرته بالواقع:

والقرآن الكريم - وهو يُبَصرُ ويُذَكِّرُ - يُرينا حقيقةَ ما يُحَدِّثُ به في واقع. كما نرى آثاره في صياغةِ أُمَّةٍ ربانيةٍ ذات رسالةٍ محفوظةٍ باقيةٍ.

لقد صيغت هذه الأُمَّةُ بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

وكان الرسولُ ﷺ هو التطبيقُ الحي لِمَا جاء به القرآنُ، في إيمانه وسُمُو أخلاقه وحُسنِ معاملاته في شتى المجالات، حتى غَدَتْ الفضائل والمكارم حيَّةً تتحرَّكُ أمام الناظرين، يَرَوْنَها فيمَن قال الله فيه.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

لقد كانت حياةُ الرسول ﷺ قدوةً طيبةً، أثَّرَتْ تأثيراً بالغاً في

(١) الأحزاب: ٢١.

أهل بيتِه وصحابته ومَن تَبِعَه من المؤمنين.

وعلى مَرِّ التاريخ نرى مواقفَ إسلاميةً شاهدة بالتغيير الكبير، والتحوُّل العظيم، والنقلةِ الهائلة التي أحدثها القرآنُ الكريم في القلوب والأفكار، والأعمال والأخلاق.

وكَفَى المسلم - في كُلِّ زمانٍ ومكان - أن يرى القرآن الكريم عملاً وخُلقاً لرسول الله ﷺ.

وما من آية تُتْلَى على الناس - إلى أن يَرِثَ الله الأرضَ ومَن عليها - إلاَّ وقد مرَّت بقلب رسول الله ﷺ، فلا غَرابةَ أنْ يكون القرآن الكريم له خُلُقاً، وأن يكون تأثُّر الناس بالقرآن واقِعاً يروْنَه في أُسوةٍ وقُدوةٍ، وأن يكون اتباع الرسول ﷺ اتباعاً للقرآن، وأن تكون طاعتُه طاعةً لله.

إن تحوُّلاً هائلاً قد وَقَعَ في الأرض بنـــزول القرآن على النبيِّ الأُمِّي محمدٍ رسول الله ﷺ، سارت معه قافلةُ الحياة على هُدىً ونُور، ونشطت - مع فَجْرِه - نفوسٌ لَبَّتْ نداءَ ربِّها، فأحياها وجعل لها نوراً تمشي به في الناس، وبقي القرآن الكريم للحياة بقاءَ النورِ في الكون، لا يتوقَّفُ مَدُّه إلى أن يَرِث الله الأرضَ ومَن عليها.

لقد نَزَلَ القرآن الكريم، وبنـــزولِه طُويت الكُتب، وخُتمت

الرسالات، وحُفظت للناس أسبابُ الحياة.

وقد صان اللهُ كتابَه من التحريف والتبديل. ومَضَى القرآنُ في الحياة يُعْلِنُ الرسالةَ، رسالةَ الأنبياء جميعاً كما جاءت من عند الله، ويقيمُ الحُجَّةَ على الناس جميعاً، ويدعوهم إلى كلمةٍ سواء.

يدعو الناس في كُلِّ زمنٍ، ويُتْلَى عليهم في كُلِّ مكانٍ، ويهديهم في كُلِّ شأنٍ.

وللقرآنِ منهجُه في إعداد الإنسان حيث كان.

لا يَقِفُ به عند ظاهرِ الحياة الدنيا، بل يَصِلُه بحكمةِ خَلْقِه وغايَةِ وجوده.

ولا يفصل علمَه بظاهر الحياة عن علمِه بحقيقتها وغايتها.

ولا يُلهيه بدُنياه عن أُخراه.

وبذا تتحقَّقُ الضوابط الخُلقية التي تَصُون الإنسانَ من ظُلمِ نفسه، أو ظُلم غيره.

وهذه الضوابط ليست نتاجَ العلم بظاهر الحياة الدنيا وإيثارِها، وإنما نِتَاج الإيمان بالآخرة وإرادتها، والعمل لها.

وهذا العلمُ - بهذه السَّعة - هو الذي يُنشىءُ حضارةً متكاملةً، يُرَى فيها الإنسانُ بقِيَمه وفضائله. الإنسانُ الذي يُقَدِّمُ خَيْرَه، ويَكُفُّ شرَّه، ويبتغي فيما آتاه اللهُ الدَّارَ الآخرة، ولا ينسى نصيبَه من الدنيا.

إنَّ الحضارةَ التي ينشدها القرآنُ الكريم حضارةُ روحٍ وجَسَدٍ، والعِلْمُ الذي يدعو إليه يخدمهما معاً، ولا يختص بأحدهما دُونَ الآخر؛ لأن هذا الدِّين هو دِينُ الفطرة، والفطرةُ - في حقيقتها - رُوحٌ فاعلةٌ في مادةٍ مُنْفَعِلَة، والإنسانُ في تكوينه - وهو مَن قامت به الحضارةُ وله - رُوحٌ وجَسَدٌ، ورعايةُ أحدِ الجانبين دونَ الآخر مُنافاةٌ للفطرة، وتعطيلٌ لجهود الإنسانية، وانحرافٌ بغايتها.

الإنسان رُوحٌ وجَسَدٌ.. والإنصافُ يقتضي الإقرار بهما معاً، على حقيقتهما في التأثير والتأثُّر.

والعلم الذي يُراد له أن يَرعى أَحَدَ الجانبين دون الآخر، يُقيمُ بنتائجه معركةً صاخبةً في ذات الإنسان أوَّلاً، لا تلبث أنْ تتحرك منه إلى خارجه، في أنانية جَشِعَةٍ وأَثَرَةٍ مُفْزِعةٍ.

تلك الفطرةُ، وتلك الحضارة التي تتحقق بها حكمةُ خَلْقِ الإنسان.

وَوَيْلٌ لحضارةٍ تُخاطِبُ في الإنسان شَهْوَته، وتُهمِلُ فطرته، تضع في يده أسلحةَ الفَتْكِ والدمار، ولا تُبْقِي في قلبه الخشيةَ من العزيز الجبار !

إنَّ الحضارةَ المتكاملة هي التي تحوط الإنسان من جانبيه: الرُّوح، والجسد. وتُعطى كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه.

فتصُون النفسَ من غوائلِ الهوى، وتعصِمُ الفِكْرَ من الغرور، وتُقيم العَدْلَ في ذاتِ الإنسان - بين فضائل رُوحه، ومطالب جسده - في توازنٍ وحكمةٍ واعتدالٍ؛ ليتحقَّق العدل في الخارج - خارجِ النفس - بلا تكلُّفٍ أو مَيْلٍ أو تجاوز.

وتلك هي الحضارة التي يُقيمها القرآن بتربية الإنسان، وقد أُنزِل القرآنُ وحُفِظَ من أجله، وما حُفِظَ لهداية الإنسان لا يُحْفَظُ الإنسانُ إلاَّ به ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (١)

وتفاعل الإنسان - حيث كان - مع الكون ملحوظٌ في آياتِ

(١) طه: ١٢٣، ١٢٤.

القرآن وهو يُري الإنسانَ صُنْعَ ربِّه، في ذاته وفي الآفاق من حوله.

وكَمْ في القرآن من آياتٍ تدعو إلى التأمُّل في خَلْقِ السماوات والأرض، وما خلق اللهُ من شيءٍ.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١)

وخَلْقُ السماوات والأرض وما بينهما بالحق يُوحي أن الحقَّ عميقٌ في تصميم هذا الوجود، عميقٌ في تكوينه، عميقٌ في تدبيره، عميقٌ في مصيرِ هذا الوجود وما فيه، ومن فيه؛ فهو لم يُخلَقْ عَبَثاً ولا باطلاً، وإنما خُلِقَ لغايةٍ وحكمةٍ.

والقرآنُ وهو يُرِي الإنسانَ ذلك حيث كان، يُبَيِّنُ له حكمةَ هذا الخَلْق؛ حتى لا يأخُذَ من الكون منفعتَهُ ومتاعَهُ، ويُهمِلُ حكمته وتبصرته.

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا

(١) الحجر: من الآية ٨٥.

مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾ (١)

والإنسانُ إنْ هُوَ أهملَ ما من أجله خُلق، ووقف بالتفكُّر والنظَر عند المتاع، ولا يزيد، فقد رَضِي لنفسه أن يكونَ كالأنعام، بل أضَلُّ؛ فالأنعامُ تشارك الإنسانَ في المتاع، وليست مؤهَّلةً لتدبُّر ما في النعمة من آيات، وكفاها أن تكونَ للإنسان متاعاً، وأن تُحقِّقَ - بذلك - ما خُلِقَت له، أمَّا مَا في النِّعَمِ من آيات فهي لأولي النهى؛ تبصرةً وتذكرةً.

﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ﴾ (٢)

وكَمْ من ناسٍ في أرض الله لا يأخذون من نِعَمِ الله إلاَّ ما تأخذه الدوابُّ والأنعامُ، فيُخضعون حواسَّهم لشهواتهم ومنافعهم، ويتَّخذون من نِعَمِ الله مَطِيَّةً لظُلمهم وإفسادهم، دون النظر لما هُم مُقبلون إليه ومُحاسَبُون عليه.

ومَن فاتَتْه دلالةُ النعمة على المُنْعِم، وصِلَةُ العاجلة بالآخرة، أفسَدَ وأضَلَّ، وعاش أيامَ دُنياه يأخُذُ منها الأدنى، ويدعُ الأعلى

(١) ق: ٦ - ٨.
(٢) طه: ٥٤.

والأبقى، وهو يَحسَب أنه يُحسِنُ صُنعاً !

إن الله إنما خَلَق الخَلْق؛ ليدُلَّ عليه ويدعو إليه. فمَن غَفَل عن دلالة خَلْقِ السماوات والأرض وما بينهما بالحق، وأنهما تذكرة لأُخراهم قبل أن تكون متاعاً لدُنياهم. أفسَدَ ولم يُصْلِح.

إنَّ برهان الآخرة يُساقُ في متاع الدنيا؛ لِيُقدِّمَ مع النعمةِ شُكرَها. وفي الشُّكْرِ تراحمٌ بين الخَلق، وبِرٌّ بالمخلوق.

إن أهل التُّقى والإيمان هُم الذين تكون الآيات لهم للحق وإنْ تمتعوا بما فيها من نِعَمٍ. أمَّا عند غيرهم فهي للمتاع لا للحقِّ، وللعاجلة لا للآخرة، ولأهوائهم لا لمعرفة ربِّهم ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١)

والإنسانُ - كما نعلم - اجتماعيٌّ بفطرته، وهو لا يعيشُ في الأرض وحده. وهو خَلْقُ الله، والله يعلم مَن خَلَق ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢)

---

(١) العنكبوت: ٤٤.

(٢) الملك: ١٤.

وكان من رحمته به أنْ أمدَّه بهدايته منذ بدايته.

وكان من فضله أن أرسل رُسُلَهُ، وأنزل الكتاب بالحق؛ ليتعاون الناسُ فيما بينهم على إقامة الحق والعدل بمنهجٍ لا تُمليه أهواؤهم ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (١)

من أجل ذلك أرسل الله الرسلَ بالبيِّنات، وأنزل معهم الكتابَ والميزانَ؛ ليقومَ الناسُ بالقسط كما أمرهم الله.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢)

هكـــذا هَدفَتْ رسالاتُ الله إلى إقامة العدل.

---

(١) المؤمنون: من الآية ٧١.

(٢) الحديد: ٢٥.

أليسَ الله هو الحقُّ المبين ؟

وجاءت العقيدةُ في الله أساساً لإحقاقِ الحقِّ، وإقامة العدل.

فهو وحده الذي ليس كمثله شيءٌ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [1] والناسُ بعد ذلك أشباهٌ وأنداد. كُلُّهم مخلوقٌ، وكُلُّهم عباد. والله الغنيُّ عن العالمين هو الذي يُقَسِّمُ بين الناس الحقوقَ دُونَ محاباةٍ أو تَحَامُل.

ومن هُنا تأتي شريعته بالحقِّ المبين الذي يعلُو على مصالحِ وأهواءِ الأفراد والجماعات، والطبقات والطوائف والجنسيات.

لقد جاءتْ شرائعُ الله تُقيم الحقَّ، وتُجري العدل بين الناس على أساسٍ راسخ متين من العقيدة التي تضرب جذورَها في الأعماق. وجاءت شريعةُ الإسلام تُوافق ظروف الناس المكانية والزمانية، ومطالبهم في تلك الظروف.

* * *

(١) الإخلاص: ٤.

مُقتضى إنزال الكتاب بالحق:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ (١)

إنَّ إنزال الكتاب بالحق فيه إلزامٌ بالحُكم به، وعدم مجاوزته أو الحَيْدَة عنه ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾(٢)

فمقتضى نزوله بالحقِّ أنْ يُتَّبع، وأن يحذر الفتنة عن شيء منه؛ فإن ذلك مُفْضٍ إلى الفسوق والفساد.

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ

(١) النساء: من الآية ١٠٥.
(٢) المائدة: من الآية ٤٨.

حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (١)

كثيرٌ من الناس يقُودُهم هواهم إلى الخروج عن حُكم الله؛ طمعاً في العاجلة، ورغبةً عن الآخرة، مع أنهم تاركون لما طَمِعوا فيه، مُقبلون إلى ما رغبوا عنه، مُحاسَبُون على الحق الذي خالفوه، مأخوذون بالباطل الذي اتَّبعوه !

ومَن رَغِبَ عن الحقِّ لم تسلم له منافعُه، ولن تبقى له مطامعُه.

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢)

قال ابنُ كثيرٍ عند تفسيره لهذه الآية: "هذه وصيةٌ من الله ﷻ لوُلاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنـــزَّل من عند الله تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه؛ فيُضلوا عن سبيل الله. وقد توعَّد الله تبارك وتعالى مَنْ ضَلَّ عن سبيله، وتناسى يومَ الحساب بالوعيد الأكيد،

(١) المائدة: ٤٩، ٥٠.
(٢) ص: ٢٦.

والعذاب الشديد".

ذكر ابنُ أبي حاتم أنَّ إبراهيم أبا زرعة حدَّث أنَّ الوليد بن عبد الملك قال له:

أيُحاسَبُ الخليفة؛ فإنكَ قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت ؟

فقلتُ: يا أمير المؤمنين أقول ؟

قال: قُل في أمانِ الله.

قلتُ: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أم داود عليه السلام ؟! إن الله جَمَعَ له النبوةَ والخلافةَ، ثمَّ توعَّده فقال: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ .... الآية ﴾

والمراد بـ (الحق) في قوله: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: بالعدل، وهو الحُكم بما أنزل الله. ولا بُدَّ فيه من تجرُّد الإنسان لربِّه، ومخالفته للهوى المُفْضِي إلى الضلال.

وللیوم الآخر شأنٌ - أيُّ شأن - في استقامة النفس وخضوعِها للحقِّ، وإيثارِها ما يبقى على ما يفنى. ونسيانه والغفلة عنه وترك العمل له يُبعد عن الحق، ويُوقِع في الضلال.

إن مصالحَ الناس لا تستقيم إلاَّ بالعدل، وروابطَهم لا تُحسن إلا بإقامة الحق. ولقد اقتضت حكمة الله ألاَّ يعيش الإنسانُ وحده، بلْ خَلَقَ الناسَ شعوباً وقبائلَ، وجعل مصالحَهم متداخلةً، وحاجةَ بعضهم إلى بعض مُتَّصِلَةً؛ ليتمَّ التعاون بينهم بصورةٍ فطرية لا تكلُّفَ فيها ولا حَرَج.

وجعل مصالحَ الجميع مع الجميع، لا مع واحدٍ منهم، وقد تنوَّعت مواهبهم، وتقسَّمت أرزاقُهم في تفاوتٍ يُحقق المصلحة.

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ ﴾ (١)

فلا بُدَّ من الحُكم بالعدل؛ لمصلحتهم جميعاً؛ درْءاً للمفاسد، ودفعاً للظُلم، وتحقيقاً للتعارف فيما بينهم.

---

(١) الزخرف: من الآية ٣٢.

ويأتي الجزاءُ في الآخرة - وهو واقعٌ لا محالةَ - ليكون حاثًّا على التمسك بالحق، والقيام بالقسط، ويكون السعي للآخرة بارًّا بدُنيا الناس، مُطهِّراً لحياتهم من الظلم والجَور. فتكون بسَعيها في الدنيا صَونا للإنسان من العبث والباطل. ويكون القيام بالحق فيها عملاً من أعمال الآخرة تطيب به الدنيا، وتُنال به العقبى في الآخرة.

﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ ﴾

إنَّ الحُكم بالحق ليسَ نافلةً يُخيَّرُ الإنسانُ بين فعلها وتَرْكها، بل هو فريضةٌ مُحكمة لا يعذر تاركها، ولا يسلم من رية أو جحود.

﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠ ﴾ (١)

ولم أرَ شيئاً يُهذّبُ سلوكَ الإنسان، ويُطهِّرُ سَعيَه مثلَ ما يفعلُ صِدقُ اليقين بالحساب والجزاء بين يدي الله، وهو أرشد الطرق وأقربُها لتحقيق أَمْنٍ وسلامٍ بين الناس.

(١) النور: ٥٠.

وعلى الباحثين عن أَمْنِ الإنسانية وسلامتها أنْ يُدركوا ما لهذه العقيدة من تأثيرٍ في سلوك الإنسان.

إنها السبيلُ الوحيد لتحقيق أَمْنٍ صادق، وسلامٍ بارٍّ. وهي تُحقِّقُ الأمنَ بلا تكاليف، وتُقيمُ السلامَ بلا انحرافٍ أو ادِّعاء.

إنها تُرشدُ الإنسانَ - وهو يؤمنُ بربِّه - أن يكُفَّ شرَّه عن غيره، في سِرِّه وعَلَنه. بل تنفُذ إلى ما يُكنُّه في صدره، فتَئِد نيَّةَ السوءِ - إن وُجِدت - قبل أن تُولَد.

وهذا ما لا تستطيعه وسائلُ البشر قاطبةً مهما عظمت.

إنَّ الإنسان الذي يؤمنُ بالحساب والجزاء لا يحتاجُ إلى قوةٍ بشريةٍ تُرغمه على حُسن الاستقامة وطُهر السلوك.

ولا تَسَلْ عن التكاليف والثمن الغالي الذي تدفعه الإنسانيةُ حين تتصوَّر أن أَمْنَها قد يأتي عن غير هذا الطريق، طريق الإيمان بالله واليوم الآخر.

لا تَسَلْ عمَّا تُنفقه كُلُّ دولةٍ في شراء سلاحها أو تطويره؛ لحماية نفسها من أختها، أو قُل: لحماية الإنسانِ من شرِّ نفسه أو أخيه الإنسان.

لا تَسَلْ عن ذلك؛ فإنَّ بُطُونَ الجياعِ تُحدِّثُكَ أنَّ أقواتَها قد اغتُصِبَت؛ لتُحْشَرَ في بُطون المدافع ! أو تُساقُ إلى مُخبَّئات التجارب، أو تُعْطَى لموقدي نار الفتنة وسماسرةِ الحروب !!

وتلك شهادة الواقع، واقعُ حياة الإنسانية كُلِّها حين نَسيت صلتَها بخالِقها، ورَكنت إلى هواها وشهواتِها.

تكاليفٌ باهظة، ودمارٌ وخراب، ودماءٌ وأشلاء، وبَغْيٌ وتسلط يشيع في الأرض، سعارٌ على أقوى الأسلحة وأشدِّها فَتْكاً، وتنافُسٌ على الغلبة والتكاثر، ومباهاةٌ بقَتْل الإنسان وإذلاله.. وتوجُّسٌ وخوفٌ من اليوم والغد.. وتهديدٌ بدمار شامل ينشرُ على الناس صباحَ مساء ! حتى غَدَت الغابةُ - غابةُ الوحوش الضارية - أفضلَ من حياة الإنسان مع أخيه الإنسان؛ لأنَّ القتلَ الجماعي فيها لا يقع، والتهديد بالدمار الشامل - دمار الغابة كُلِّها - من سكانِها لا يتم، وكُلُّ ما يقع من وَحْشٍ ضار أنْ يملأ بطنه من فريسته ولا يزيد.

أما الإنسان فلا تَسَلْ عنه حين يطغى ويستبد، ويعيش لدُنياه وينسى أُخراه. لا تَسَل عمَّا يقعُ من خرابٍ ودمار من كُلِّ متكبرٍ لا يؤمن بيوم الحساب.

إن العقيدة في القرآن الكريم ليست بمعزلٍ عن واقع حياة الإنسان، ولا بعيدةٍ عن شأن من شئونه.

إنَّ القرآن يُرينا قَدْرَها وأثرَها في حياة الناس، في ماضٍ وحاضر ومستقبل، في دُنيا وأُخرى.

يُرينا ذلكَ في قصص القرآن وحديثه عن الأمم الماضية؛ لنعرف منه سُنَنَ الله فيمن آمن ولم يُصِر على باطل، وفيمَن أصَرَّ على جحودٍ وكُفْر، ولم يستبصر ويعتبر.

والقصصُ القرآني كُلُّه لإبراز حقيقة العقيدة وأثرِها في حياة الإنسان، تصديقاً وإيماناً، أو كُفراً وجُحوداً.

وكُلُّ ذلك من أجل العقيدة وصيانتها من الإلحاد في آياتها أو بيان حقيقتها. ولا عُذْرَ بعد بيان، ولا حُجَّةَ بعد إعذارٍ وإنذار..

وأيُّ إعذارٍ وإنذارٍ أقوى مما يحذر منه في واقع ؟!

لقد حذَّر الله تعالى من الشرك، وبيَّنَ أنه مدمرٌ لأهله، ومَن أصَرَّ عليه أُخِذَ به ولم يُغْفَر له إذا مات عليه.

والقصصُ إذ يرينا النتائج يبصرنا بها ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ

عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ ﴾ (١)

وفي كُلِّ ذلك نرى كُلَّ نبيٍّ يُخاطِبُ قومَه بالعقيدة.

﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ (٢)

ويجعل الأعمالَ مرتبطةً بها سلباً وإيجاباً، إيماناً وكُفراً. فلا يقبل الله عملاً - ولو كان صالحاً - إلاَّ بالإخلاص لها، والوفاءِ بحقِّها.

وذلك هو الشأن في إنزال القرآن:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ (٣)

﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٦٥ ﴾ (٤)

---

(١) الأنفال: من الآية ٤٢.
(٢) الأعراف: من الآية ٥٩.
(٣) الزمر: ٢، ٣.
(٤) الزمر: ٦٥.

وكَم من أمثلةٍ تُضرَب وقَصَصٍ يُتلى؛ من أجل نجاة الإنسان وفوزه بحُسن العاقبة والمصير.

ولا نجاةَ ولا فوزَ إلاَّ بمعرفة حقِّ الله، وصدق الوفاء له، والخشية منه.

ولا حضارةَ تُقام وتُحفظ فيها حقوق الإنسان إذا ما اتَّخَذَ الناسُ من دون الله أنداداً، وكانوا لأهوائهم وشهواتهم، ولم يكونوا عباداً لخالقهم.

إن الله ﷻ يُريهم - في حديث القرآن - كيف تُدَمَّرُ الحضارات، ويُساقُ الفناء إلى ما شُيِّدَ فيها من بناء؛ بسبب ما اتَّخذوه من دون الله من آلهةٍ، وما وقعوا من ذنوبٍ وآثام ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١)

(١) غافر: ٢١، ٢٢.

لقد كان في قصصهم عبرة:

وفيما قصَّه الله تعالى من قَصص، وما ضربه من أمثال عِبْرَة لأُولي الألباب، في كل زمان أو مكان.

وهو قصصٌ واقعٌ، تُرَى دلالته ووقائعه في كثيرٍ من حياة الإنسان.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (١)

ويَا لَه من مثلٍ بالغ الدلالة، فيه ما فيه من بُطلان كُلّ ما عُبِدَ من دون الله، وخذلان كُلّ مَن اتَّخذ من دون الله أنداداً ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٢)

---

(١) يوسف: ١١١.

(٢) الحج: ٧٣.

ضُرِبَ هذا المثل؛ ليُسمَع وليُعرَف ما في الشرك من بطلانٍ وخُسران، كما ضُرِبَ مَثَلُ العنكبوت؛ ليُعرَف ما في الشرك من خُذلانٍ وضياعٍ وهوان ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (١)

وفي المَثَلَيْنِ - لبطلان الشرك وضياع أهله - بيانٌ لما يُرى في حياة الناس في ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل.

والله محيطٌ بكُلِّ شيء، عالمٌ بما كان، وما هو كائن، وما سيكون.

وهذا الدمار والبطلانُ للشرك وأهله يمتدُّ - مع الإصرار عليه - إلى إحباط الأعمال، وسُوءِ العاقبة والمصير في العاجلة والآخرة.

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (٢)

---

(١) العنكبوت: ٤١.

(٢) الحج: من الآية ٣١.

وكفانا أنْ نرى - في هذا المقام - ما ضربه الله مثلاً رجلين، جعل الله لأحدهما جنَّتين، والقرآن الكريم يَصِفُهما وصفاً تراه أمامَك، وتكاد ترى نفسَك بين الرَّجُلَيْنِ وهما يتحاوران.. تشاهد ما يشاهِدان، وتحاور فيما يُحاوِران، وتعرف من نفسك - وأنت تسمع، بل تشاهد حوارهما - أينَ تحب أن تكون ؟ وأنت ترى النتائج والعواقب قبل أن تبارح ما تشاهد من حوارِ بَطِرٍ صَلِفٍ مغرورٍ من جانب المشرك، وحوارٍ بارٍّ صادقٍ معتدلٍ من جانب المؤمن.

ويدور الحوارُ حتى تشهد بعينيك دماراً شاملاً، وهلاكاً مسيطِراً، وترى المشرك على حالٍ غير ما كان عليه وهو مُسْتَدْرَجٌ بالنعمة التي جُعلت له.

نقرأ ذلك في سورة الكهفِ، ونشاهد المقدِّمات كما نشاهدُ النتائج.

والقرآنُ يُتلى على الناس إلى أنْ يرثَ الله الأرضَ ومَن عليها؛ ليكون للعالمين نذيراً. ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾

وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (١)

هكذا دارَ الحوار بين الرَّجُلين. وعُرِفَ ما عند أحدهما من إيمانٍ ويقينٍ، وما عند الآخر من إصرارٍ على إنكارٍ وجحود.

ولم يتوقّف صاحبُ اليقين والإيمان عن تبصرةٍ وتحذيرٍ وإنذارٍ، حيث قال لصاحبه:

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾

(١) الكهف: ٣٢ - ٣٨.

أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ (١)

ولم يَكَدْ الرجلُ يفرَغ من عِظَتِه لصاحبه وتبصرته وإنذاره، حتى رأينا النتائج والعواقب ماثلةً تُبْصَر وتُشاهَد، وتُعطي دلالتها وعِبرتها للناس إلى قيام الساعة.

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ عندئذ رأينا الرجُلَ - وهو يشهدُ موطنَ غروره واعتزازه - خاوياً كجنَّته، مُتجرِّداً من كُلِّ أسلحته، فلا هو أكثر مالاً، ولا هو أعزُّ نَفَراً، وما كان له من فئةٍ ينصرونه من دون الله، وما كان مُنتصِراً.

---

(١) الكهف: ٣٩ - ٤١.

(٢) الكهف: ٤٢ - ٤٤.

وقد كان يفاخرُ صاحبه، ويقول: ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾، ويقول عن جنَّته: ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝ ﴾

اعْتِدَادٌ بدُنياه أدخلَه في الإصرارِ على الكُفر والجحود والغرور، جحودُ العَوْدِ إلى الله والاستخفاف به، والغرور بأنه أهل لأن يجدَ خيراً إنْ هو عَاد - في ظنِّه - ورُدَّ إلى ربِّه.

وكَم في حياة الناس من مفتونٍ بالحياة الدنيا، مُستَدْرَجٍ فيها، مُرْتَكِنٍ إليها، غافلٍ عن الآخرة، منشَغِلٍ عنها !

وشتَّان - في حياة الناس وروابطهم - ما بين إيمان يُخضِعُ عطاءَ الله للقيم والفضائل، وشِرْكٍ يُخضعه لبغيٍ وإفسادٍ وتسلط.

شتَّان ما بين مؤمنٍ يقول: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ (١) وظالمٍ لنفسه، يقولُ في غرورٍ أَبْلَه: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ (٢)

---

(١) النمل: من الآية ٤٠.

(٢) القصص: من الآية ٧٨.

الأول: يعترفُ بفضل الله، فيشكره في البرِّ بخَلْقه.

والثاني: ينكرُ فضلَ ربِّه، ويسند الفضلَ لنفسه، فيبغي الفسادَ في الأرض.

مِن ذلك نعلمُ - علمَ اليقين - أنَّ كُلَّ شيء في الحياة أساسُه الاعتقاد، وعلى العقيدة وحدَها يقومُ السلوك؛ فمَن آمنَ بالله واليوم الآخر آثَرَ رِضَى ربِّه، وأخضع كُلَّ شيء لطاعته، ومَن أشرَكَ به فقد ظَلَمَ نفسَه، وعرَّضها لحُسْبَانٍ من السماء يُحطِّمُ آمالَها، ويُدمِّرُ ثمارَها، ولا شيء في النهاية إلاَّ الحسرة والندامة، والقول - بعد فوات الأوان -: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾.

إنَّ ما تعلَّقت به النفوسُ من دون الله ضائعٌ.. إنَّه سَرَابٌ خادِعٌ ﴿ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١)

أَمِنْ أجلِ الدنيا يفقدُ الإنسانُ الوفاءَ لخالقه ؟

(١) النور: من الآية ٣٩.

أيُّ شيءٍ هي ؟

وهل تستحقُّ أن يُخضِعَ الإنسانُ قلبَه لزهرتها وزينتها، وينسى حقيقتَها وعاقبتها ؟

ذلكَ مَثَلُها، وتلك نهايتُها:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ (١)

وإذا كُنَّا قد رأينا دمارَ الشرك في مَثَلٍ أو أمثالٍ ضربها الله في القرآن؛ لنَرَ عاقبةَ الإيمان في أمثال وأمثال جُعلت للمؤمنين قدوةً في كُلِّ زمان ومكان.

والقرآن الكريم يُرينا ذلك في كثيرٍ من أحداث وأحوال:

* نَرَى عاقبةَ التُّقى والإيمان في يوسف عليه السلام وما جرى معه، وما انتهى إليه، في سورةٍ كاملةٍ سُمِّيتْ باسمه (يوسف) نشاهدُ فيها

(١) الكهف: ٤٥.

المقدمات والنتائج، ونرى العواقبَ لِمَنْ أحسن ومَن أساء؛ لنعرف للإيمان قَدْرَه، وللإحسانِ منـــزلته، ويكون شعارُنا مع أنفسنا ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[1]، ودعاؤنا لعاقبتنا ما دعا به يوسفُ عليه السلام: ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾[2]

* ونَرى ما نَراه من أثرٍ لحقيقة الإيمان في يعقوبَ عليه السلام وهو يفقدُ - من البلاءِ - بصرَه، ولا يفقد في الله رجاءَه وأملَه.. وهو الذي يقول لِبَنيه: ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[3]

* ونَرى ما نراه من ثقةٍ في وَعْد الله، وفرارٍ إليه دون سواه، فيما كان من أُمِّ موسى عليه السلام وهي تعرفُ أنَّ وليدَها سينالُه الذَّبْحُ كما نَالَ

(١) يوسف: من الآية ٩٠.
(٢) يوسف: من الآية ١٠١.
(٣) يوسف: ٨٧.

غيرَه – وقد وُلِدَ في عامٍ لم يسلم فيه مولودٌ – فماذا يكون ؟

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ (١)

مَنْ الذي يملك أن يُحقّقَ ذلك مهما كان معه من أسباب ؟

مَنْ يملكَ ذلك غيرَ الله ؟

ومَنْ تلكَ التي تسمح لنفسِها أنْ تُلقيَ وليدَها في اليَمِّ إذا خافت عليه ؟!

وإلى أين يذهبُ به اليَمُّ ؟

وما وسائلُ المُلْقِي في اليَمِّ في سلامةٍ أو نجاة ؟

ومَاذا يكونُ الحال إنْ وقَعَ في أيدي مَن يكيدون ويذبحون ؟

وهوَ إنْ نَجَا مِن غَرَقٍ في الماء، فما السبيلُ لخلاصه من أيدٍ تلتقطه وتأخذه ؟

---

(١) القصص: ٧.

ويكفي أنْ تُقْرَأ الآياتُ من بعد؛ ليُعْرَفَ كيف يتحقَّقُ الوعد، وعدُ الله الذي لا يخلفُ وعده ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝ ﴾ (١)

بالله، هَو الآن في أيدي مَن يكيدون ويذبحون؛ ليُعلم أنه مَنْ حَفِظَهُ الله لا يمكنُ أن يُضَيَّع، وأنَّ المكرَ السيئ لا يحيقُ إلاَّ بأهله.

وذاكَ ما تُمليه العقيدةُ، ويفرضه الإيمانُ.

وهذا ما كان ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾ (٢)

نَجَا الرضيع من ذَبْحٍ، كما نَجَا من غَرَقٍ بفضلٍ من الله تعالى وحده دون سواه.

فماذا عن حالِ أُمِّ موسى وقد وُعِدَتْ أن يعودَ إليها في وَحيٍ

---

(١) القصص: ٨.

(٢) القصص: ٩.

وَوَعْدٍ من الله ؟!

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

تحقَّقَ وَعْدُ الله، وعاد الرضيعُ إلى أُمِّه مُعَزَّزاً مُكرَّماً، تُرضِعُه وتأخُذُ أجراً !

* ونرى ما نراه من عِزَّةٍ وثباتٍ وإيثارٍ لِمَا يبقى؛ ثِقَةً في وَعْدِ الله، وعبادةً له دون سواه.

نرى ذلك في امرأةِ فـــرعون الذي يقول في بَطَرٍ وزَهْوٍ، وهو ينادي في قومه:

(١) القصص: ١٠ - ١٣

﴿ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (١)

فلا ترى في ذلك كُلّه، وفيما يقع منه إلاَّ ضَيَاعاً ومتاعاً، وعتواً وفساداً.

وتأوي إلى الله تنشُدُ رحمتَه، وتطلب رضاه مؤمنةً صادقةً، صابرةً مُحتسبةً، ترى الله ولا ترى أحداً سواه، مع ما توافر لها من دُنيا يسيلُ لها لعابُ الغافلين، ويركن لشيءٍ منها مَن يركنُ من اللاَّهين الغافلين.

ولذلك ضربَها الله مَثَلاً للمؤمنين ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (٢)

فنَجَتْ بفضل ربِّها من كيدِ فرعون. وصَعدت - بإيمانها - إلى مكانةٍ لم يصعد إليها إلاَّ قليلٌ من نساء المؤمنين.

---

(١) الزخرف: من الآية ٥١.
(٢) التحريم: ١١.

وقد ثبت في الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: « كَمَلَ [1] مِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النِّسَاءِ إِلاَّ: آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ [2] » [3]

ومن عجائب الإيمان أنْ ترى أثرَه في رجالٍ ونساء، وكبارٍ وصغار، وحُكَّام ومحكومين، وفقراء وأغنياء.

تراه نوراً ويقيناً، وصبراً واحتساباً، ورضىً عن الله في كُلِّ حالٍ.

ولا تغيبُ عنك دَلالته، ولا تختلط صيغته.

---

(١) الْكَمَال: يُطْلَقُ عَلَى تَمَام الشَّيْء وَتَنَاهِيه فِي بَابه , وَالْمُرَاد به هُنَا: التَّنَاهِي فِي جميع الْفَضَائِل، وخصال الْبِرِّ وَالتَّقْوَى

(٢) قَالَ الْعُلَمَاء: مَعْنَاهُ أَنَّ الثَّرِيدَ مِنْ كُلِّ الطَّعَامِ أَفْضَلُ مِنْ الْمَرَق , فَثَرِيدُ اللَّحْمِ أَفْضَلُ مِنْ مَرَقه بِلَا ثَرِيد , وَثَرِيد مَا لَا لَحْم فِيهِ أَفْضَل مِنْ مَرَقه. وَالْمُرَاد بِالْفَضِيلَةِ نَفْعُهُ , وَالشِّبَع مِنْهُ , وَسُهُولَة مَسَاغه , وَالِالْتِذَاذ بِهِ , وَتَيَسُّر تَنَاوُله , وَتَمَكُّن الْإِنْسَان مِنْ أَخْذ كِفَايَته مِنْهُ بِسُرْعَةٍ , وَغَيْر ذَلِكَ , فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ الْمَرَق كُلّه , وَمِنْ سَائِر الْأَطْعِمَة. وَفَضْل عَائِشَة عَلَى النِّسَاء زَائِد كَزِيَادَةِ فَضْل الثَّرِيد عَلَى غَيْره مِنْ الْأَطْعِمَة.

(٣) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ، رقم ٣١٥٩.

إنه الإيمان، وإنها العقيدة.. بها يكون الأمنُ، ولا يكون بغيرها أَمْنٌ ولا سَلام.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١)

ذلك أنَّ الذي يحذَرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربِّه لا يكُفُّ عن الشَّرِّ فحسب، بل يُسارِع إلى الخير - في وَجَلٍ - ألاَّ يُقبَلَ عمله.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٢)

وحين تنتصر العقيدةُ في النفوس يتحقَّقُ الأمنُ في حياة الناس. وذاك ما بشَّر به الرسولُ ﷺ حين يكون ذلك وينتصر الإيمانُ، حيث قال: « وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ (٣) حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ (٤) لا يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ

---

(١) الأنعام: ٨٢.

(٢) المؤمنون: ٦٠، ٦١.

(٣) أيْ أمْر الدِّين.

(٤) صنْعَاء: بلَد بِالْيَمَنِ، وحَضْرَموْت: موْضِع بِأقْصَى الْيَمَن.

تَسْتَعْجِلُونَ »[1]

لأنَّ الناس عندئذٍ تحكمهم عقيدتُهم، وتأسرهم بفضائلها وأخلاقها، فلا يقع منهم الغدرُ، ولا تضيع الأمانةُ في سِرٍّ أو عَلَن.

وهم يوقنون أنَّ ما يغيب عن أعين الناس لا يخفى على علمِ الله، وأنَّ مرجعهم جميعاً إلى الله، فيُنبئهم بما عملوا.

﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾[2]

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾[3]

وبعدُ، مرَّة أخرى. فإنَّ العقيدةَ في القرآن الكريم يرتبطُ بها كُلُّ شأن من شئون الإنسان، بحيث تكون هي الأصلُ في نيَّتِه وقوله وعمله ومعاملته، وأيُّ شأن من شئونه.

---

(١) البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٣٣٤٣.
(٢) النور: ٢٥.
(٣) المجادلة: ٦.

بها يُرْفَعُ الكَلِم، ويُقبَل العمل، وتُنصب الموازين، ولا تثقُل إلاَّ بها، ولا تخف إلاَّ بفُقدانها.

عليها يتوقَّفُ الأمنُ والسلام في دُنيا الناس، ويكون الفوزُ وتكون النجاة من العاقبة والمصير.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (١)

وآخِرُ دَعْوَانَا أن الحَمْدُ لله ربِّ العالمين.

محمد الراوي..

* * *

(١) النحل: ٩٧.